و لازال يبحث



إدريس ولد القابلة



© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة ل
www.nashiri.net
© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب

نشر إلكترونيا في إبريل 2004

المحتويات

1 و لازال يبحث
2 لحظة ليست كاللحظات
3 رحلة في دروب الذاكرة
4 فراق
5 للمحبة دائما لحظتها
6 يموت لتغذية الأمل
7 وراء النافذة
8 المتجول
9 و انكسرت المرآة
10 حفاظا على سمعة المرحومة
11 البتول و البحيرة
السيرة الذاتية للكاتب

1

ولا زال يبحث

خرج " حسان" من الباب الخلفي للبناية وأدار طهره إلى الحارس ثم التفت إلى المارة الآتين من بعيد.

سار بجانب الحائط بتأني وحيطة الطريق ما يزال طويلا أمامه.

اخترق " حسان" اللحظة الآنية وهام في لحظات مضت وأخرى سوف لن تأت وتذكر السؤال...

ذاك السؤال الذي لم يفارقه منذ وعى وجوده، منذ بداية البدايات.

ما معنى أن يكون المخلوق إنسانا؟ بدأ يستعرض إجابات مختالحيوان،لإنسان من أرقى المخلوقات كرمه خالقه وجعله خليفة في الأرض ليعمرها ويصلح ما فسد بها ؟ أم أنه منحدر من عالم الحيوان، من فصيلة العارفين، وتحديدا من عائلة العارفين الذين يعرفون أنهم عارفون؟

ونماذج هذه العائلة عديدة ومتعددة أخذ " حسان" يتصور النموذج تلو الآخر: الإنسان العارف، الإنسان الذي بدأ يفكر لأنه شرع في استعمال يديه، الإنسان الاقتصادي الإنسان العقلاني، الإنسان الموجود لأنه يفكر، الإنسان الموجود لأنه يرفض الإنسان الثائر، الإنسان الشهواني....

وصل " حسان" لإلى مفترق الطرق، التبس عليه الأمر وتحير في اختيار الاتجاه، بعد تردد قصد الزقاق المظلم المؤدي إلى الدرب القديم الكائن بالحي العتيق.

عاد «حسان" إلى الاهتمام بالسؤال المعلوم محاولا التطرق إليه برؤية متحركة، واكتفى باعتبار الإنسان كائن عابر للزمان، سائر في دروب العصر، في تحول دائم حتى ضاع في المتاهات منذ أصبح مواطنا عالميا، وفردا من أفراد المجتمع العالمي، مواطن يتوهم انه يستمتع بوجوده لكنه واع كل الوعي أنه يعاني من غياب المحبة واندثارها.

لكي يكون الإنسان إنسانا عليه أن يحب، أن يحب امرأة أو شيئا آخر، المهم أن يحب.

منذ القدم بحث كثيرون عن المحبة، وآخرون يحيطون "بحسان" مازالوا يبحثون عنها، وسوف يستمر في البحث عنها الآتون مستقبلا.

... عندما وصل " حسان" إلى مدخل الدرب القديم الكائن بالحي العتيق، أحس بدوخة واجتاحته إحساسات غريبة، ذكريات مبهمة، وشعر كأنه ورقة شجرة يابسة تتلاعب بها رياح الخريف الآتي قبل أوانه.

ترنح موجها بصره نحو دكان العطار العجوز القابع بمكانه منذ أن رفض تلبية طلبات الزبناء الشيطانية.

حذق العطار العجوز في " حسان" وصوب نحوه نظرة اتهام أضيفت إلى الجمل الذي يثقل كاهله، ارتسمت ابتسامة غريبة على وجه " حسان" الحزين، بدا المظهر غريبا غرابة المواطن في وطنه.

- معذرة يا سيدي ألا تعرف زنقة المحبة؟
- لا أعرفها ولا سمعت بها؟ لا توجد زنقة بهذا الاسم في هذا الحي العتيق....
- هل أنت متأكد يا سيدي؟
- نعم، فلا يمكن نسيان اسم مثل هذا يا ولدي..... هل تبحث عن شخص ما يقطن بزنقة المحبة؟
- لا ... لا... ولكن هو حلم ... بل...

استدار " حسان" بسرعة واختفى في ظلمة الدرب القديم الكائن بالحي العتيق، مر بجانب مسجد عتيق ومقهى حديث وسمع أطراف حديث تتصاعد إلى الهواء، وكلما ارتقت فقدت معناها ومضمونها.

-..... إذن لم يبق إلا الإعلان عن الحرب....
- ..... هناك من يزال صامدا... العلماء كثيرون ... لا يمكن كسب الجولة.
-..... وما العمل لا يمكن كسب الجولة.
-..... الحلم .... نعم الحلم .....
-.....لعلك متشائم كثر من الحد المحتمل....
-.... إن أفكاري غريبةعليها، لم أطلع عليها، هل تحتفظ بها لك وحدك؟

-.... إنما..... ولكن ... لن أعلن عنها حتى أقتنع بها فعلا....

- ومتى ستقتنع؟

- إنني على وشك القناعة، قناعة لا رجعة فيها: المحبة اغتيلت من زمان.....

- آه... آه... إنما .... من الممكن.... ولكن....

- تابع " حسان " سيره بثبات مصرا على البحث عن زنقة المحبة سابحا ضد التيار، عازم على المضي في طريقه حتى ولو اضطر إلى عبور الماضي والرجوع إلى البداية للعثور على البذرة لغرسها لكي تنمو شجرة المحبة وتحيى وتعطي ثمارها.

لابد أن هناك بذرة في مكان ما، في قلب ما، في فكرة ما في عقيدة ما، فما عليه إلا حسن النظر بعينيه، والسمع بأذنيه والتصديق بقلبه وتحرير فطرته من قيود العصر.

عليه العثور على البذرة في البدء وليس كما هو الآن، لابد أن يعود محبا بالفطرة.

2

لحظة ليست كاللحظات

كانت زيارة المقابر في يوم الجمعة من أسعد أيام الفتى.

كانت الجدة تستيقظ باكرا وتعد الإناء النحاسي الخاص فقط بري قبر الجد.

... أمضى بين أمي وجدتي وأختي وحال اقترابنا من مدخل المقبرة تتقدمنا جدتي، تبسمل ثم تقول لنا إياكم وان تدخلوا بالرجل اليسرى، وابدؤوا بالرجل اليمنى.

لم يكن الفتى يعي مغزى ذلك، لكن كان يحلو له دائما معاكسة، جدته ويقدم رجله اليسرى عوض اليمنى، وكلما لاحظت فعلته تعيده بقوة إلى خارج الباب ولا يفلت منها إلا بالامتثال لأمرها بتسبيق اليمنى عن اليسرى.

... كان يسرني تدفق طوابير البشر وطوابير العربات الآتية من الدروب العتيقة الكائنة بالمدينة المنسية.

كانت هيئة قبر جدي بسيطة لكن كان عليه وقار طاهر بشاهديه القائمين على رأسه وقدميه.

كان يسعدني إجلال جدتي وأمي لهذا القبر البسيط، الذي لا يكاد يبين لكثافة النباتات الجاثمة حوله من كل جانب.

.... كان حب الاستطلاع يدفع الفتى للوقوف أمام القبور وقراءة ما كتب عليها، وكانت حيانا جدته تسأله عن اسم صاحب هذا القبر و ذاك، فيقرأ بترو ويجيبها بفخر واعتزاز، ألم يكن هو مثقف الأسرة القاطنة بالمنزل المتلاشي الكائن بالدرب العتيق بالمدينة المنسية؟

يأتي المقرئ الضرير وجماعات من الشحاذين وبائعي الماء، تختار الجدة واحدا منهم وتأمر الآخرين بالانصراف بعنف.

.... تلد أم الفتى ولدا وتسميه منيرا، كانت ولادته عسيرة وحياته عسيرة، دخل المستشفى ورقد به وهو مازال رضيعا بعد إصابته بمرض عضال قبل أن يفقه شيئا في هذه الدنيا.

أخرجوه من المستشفى ونقلوه لإلى المنزل المتلاشي بالدرب العتيق بالمدينة القديمة، ذاك المنزل الذي كانت الجدة تقول عنه أنه عامر " بأهل المكان" مسكون من طرفهم.

.... كانت جدتي تحمل الجن مسؤولية مرض أخي الرضيع " منير" وتدهور صحته، أصبح الجو بالمنزل يطبق عليه الكدر والحزن ويحيطه البث والشجو ويخيم عليه الهم والكرب وتغزو أركانه الكآبة.

ضاق درع أمي، أصبحت تعيسة جزعة، ساءها ما حدث لوليدها وأضرم قلبها وأغض طرفها وهد ركنها وأمر عيشها وأطال لياليها وأطار الرقاد عن عينها.

وأختي وجدتي تبكيان باستمرار وبدون انقطاع كلما نظرتا إلى أخي منير، وأبي مهموم مشغول البال...

ويسأل الفتى عما حدث ولا من مجيب، .... رغم الصمت الذي كان يحاصرني كنت أشعر بان حدثا غير عادي في طريق الحدوث وكان الحدث خطيرا لدرجة أن أم الفتى تبكي وجدته تصرخ.

.... لمحت من بعيد أخي الصغير منيرا مغطى من رأسه إلى أخمص القدم، ملقى على الفراش في قاع الغرفة المظلمة بالمنزل المتلاشي بالدرب العتيق بالمدينة المنسية.

..... وبدأت كلمة " الموت" تتردد ويفهم الفتى أنه الفراق.

.... أبكي مع الباكين ويتألم قلبي وأحزن حزنا يفوق سني ولم تعد زيارة المقابر من أيامي البهيجة، ويتغير واقع منظر وجو المقابر يوم الجمعة، ولا يعزيني أن تقول لي جدتي أن أخي منير يمرح في الجنة مع الملائكة.

..... ورغم مرور الأيام لم يستطع الفتى نسيان الأخ الصغير منير والتغلب على ألم الفراق، وملكه الخوف من الموت .... موت الآخرين.

3

رحلة في دروب الذاكرة

يدخل إلى المقهى ويستقر بالزاوية، قرب النافذة يطلب قهوة سوداء ويشرع في السفر بين أركان ذاكرته.

يسير مخترقا عثمان المسير نحو الماضي، ذكريات تتلاشى وأخرى تتولد، تتجه إلى منتهاها، يخرج من نفق ليلج آخر.

توقف لحظة.....

..... عن ماذا سوف أكلمها ؟ عن الحب .... لاشك أن كل واحد منا يعز الآخر، ومن المعلوم أن الحب الخالص إذا كان يخلق فجأة فإنه يحيى كالكائن لابد أن يهتم به لكي يترعرع.

إنه مغاير للهفة كل المغايرة، وما هو بلذة ماشية لحتفها، فاللهفة واللذة تنتهيان، يمكن لإحداهما أو كليهما أن تتقوى بين شمس وضحاها لكن محكوم عليهما بالفناء عاجلا.

والحب يظل ويبقى وتستمر بصما ته وتبقى علاماته دالة عليه وشاهدة، إذا روعي حسن الرعاية.

.... وتسأله بصوت رخامي:

- لماذا كل هذا الكلام عن اللهفة والحب كلام عذب يكسر الحجر.

يجيبها بصوت شجي:

- لا تتسرعي ..... ستعرفين لا محالة

- تخو نه الذاكرة يشغل سيجارة أمريكية ويستمر في رحلته.

.... أول يوم عطلة بعد الإجازة التي قضاها برفقتها، وحيد طول النهار، يفكر في المطالعة لكن فكره المتشتت لم يسعفه، تملكته رغبة قوية للسفر إليها لكن المسافة شاسعة بينهما وعليه استئناف عمله غرا. لم يجد مخرجا إلا التفكير فيها وحدها دون سواها.

يحضر النادل القهوة المطلوبة، تنبه إليه وترامت إلى سمعه قطرات مصفاة مندلفة من آلة عود شرقي ودربكة ناعسة ساعدته على مواصلة رحلته.

..... وجد نفسه وحيدا في مدينة نائية، قرر كتابة مذكراته يوما بيوم وهكذا سوف يتصل بها بالكلمة وعبر القلم.

تذكر يوما من الأيام... وكان يوم السبت .... هي وهو معا في المحطة ، محطة مدينتنا حيث كان اللقاء وكان الفراق، لحطة تصورها بين الحلم والحقيقة.

الحلم: تحولت المحطة إلى حديقة عمومية يتنزهان تنزه المستقرين بالمدينة.

الحقيقة: الصعود إلى الحافلة والاستقرار بالمقعد الحامل للرقم المثبت بالتذكرة للتوجه إلى المدينة النائية / مدينة الوحدة والمنفى حسب قاموسه الجديد.

.... بعد جولة في دروب محاولة النسيان حطت ذاكرته الرحالة بيوم سبت آخر.

لحظة الإحساس بالوحدة، بالغربة، وكان الحل، الارتماء في أحضان ساعة ميلاد علاقته بها.

في ساعة ، في يوم في شهر ، في سنة كان ما كان ، يوم من أيام رمضان المشمسة ، في رقاق من أزقة المدينة العتيقة كان الهدف نبيلا....

بعد المرور أمام الزبناء، اقترب منه ماسح الأحذية قائلا بصوت مشروخ يخرج من فم فارغ من الإنسان.

- هل أمسح الحذاء يا سيدتي؟

لعن الصوت المشروخ الذي قطع عليه سفره عبر الذاكرة بأدب مقيت.

إعتذر وهو يراقب جانبه الأيمن ثم الأيسر، الطاولات المجاورة فارغة، أدى ثمن القهوة ومضى.

وهو يمشي في الشارع، واصل مسيرته في سبر أغوار ذاكرته.

.... أول لقاء، لحظة ميلاد العلاقة، هل كانت صدفة؟ لنكذب سويا ونقول معا بصوب واحد: إنها كانت صدفة. لكن صدفة ، منسوخة خيوطها مسبقا، صدفة مع سبق الإسرار مع الترصد.

مر الزمن وطارت الشهور، وبدأ ينظر إلى الآفاق، إلى ما سيأتي وكيف أراد ن يكون غذه وليس كما سيكون، غذه هو وغد التي أراد قلبه، غدهما معا.

لكن أين محل هذا الغد كما يريدانه في عالم مطبوع بالصراع الدائم، بالتناقض، عالم يعيش فيه الإنسان في اللامساواة والمساواة فطرته، يعيش في التفرقة وهو يطمح للوحدة والاندماج، يعاني فيه من النقص والحرمان وهو يسعى للوفرة والإستمتاع.

على كل، يعرف ما يريد، ولم يبق له إلا بلوغ مراده، أصبح المجهول معروفا، والمعروف بات هدفا ومبتغى.

.... توقف عن متابعة رحلة ذاكرته وتوجه إلى مرفأ حلم ليلة من الليالي.

.... حمامة مهاجرة تحط على كتفه الأيمن وهو يصلي في مدينة الوحدة والمنفى، تتفتح أبواب السماء المغلقة، تتساقط الصعاب متناثرة معلنة نهاية عصر التردد والإنتظار تشق الحمامة المهاجرة قلبه وتودع اسما، يركض الاسم في الخاطر والبال، بالاسم أصبح يفكر، به يهمس في أذن مدينته وكل المدن، انصهر أحباؤه وأصبحوا واحدا أحبابه هؤلاء هم واحدة، واحدة هي أحبابه، وضع يد في يدها، وشرعا في السير معا.

" مسيرة معا حتى النهاية".

إبتداؤا من هذه اللحظة زرع في عينيها علامات الحنان مكتوب عليها حروف تعرفه بالشوق وبالبقاء ورسم على وجهها الوضاء أغنية الفرح والأمل على إيقاع معزوفة القمر وعدها ووعدته بعدم نسيان عدم إحتياجهما لا للثروة ولا للمجد ولكن يكتفيان بالبقاء معا.

.... في هذه اللحظة أنهى رحلته القصيرة في دروب الذاكرة ووصل لإلى محطة الحاضر يتابع مسيرته متخوفا من خبايا القدر في عالم أوضاع عادة الحرص على المحبة ورعايتها.

4

فراق

عقارب الساعة تدور دورتها الجهنمية بلا رحمة والوقت يجري بسرعة مدهشة. ألقي نظرة مترقبة على الدائرة المعدنية التابعة وسط معصمي المحصون بواسطة أطرافها الجلدية السوداء، أتعجب من هذه العقارب الثلاثة الهشة كيف تتحكم في مصير البشر حتى الأقوياء منهم، ركزت على العقرب النحيف الذي لا يكاد يبين وهو يدور كعشرة شقراء دون إكثرات بأحد.

بدورانه يمر الزمن وتطير السنين، لكنه هاهو الآن مازال لم يسمح بقدوم وقت الفطور، بعد يوم طويل من الإمساك عن الفواني.

السماء هذا المساء رمادية، سماء اليوم رصاصية تنذر بالخير للبعض وبما لا يحمد عقباه للبعض الآخر، تتلبد الغيوم، ضخمة سود، منذرة بسقوط زخات من المطر المنهمر.

لقد فتح الفتى عينيه وسط الفقر المدقع وقاسى من كتب وحرمان وظلم ولم يكن له ملجأ إلا حنان الأم وعطفها.

كان غارقا في وحل المشاكل لا يتحمل العيش إلا بعد أن يفقد وعيه بانتشاء من حنان أمه وعطفها القدر الكافي، سكرة الحنان الأمومي تمكنه من مواجهة القدر كقدر مرتقب لا أمان معه، رغم أنداب الدهر وإندمالات القهر والحرمان كان الفتى يبدو بحضور الم وجه طفلي وضاء، بذرة من حياة قاسية ماثلة بين أيديها تعجز الكلمات والتعبيرات على وصف فرحها بفيض إبداعها في عالم الظلم والتهميش.

في هذه الليلة من ليالي رمضان صرخت جدتي .... سرع الفتى إلى غرفة والدته، مسح المكان بعينيه فارتد حاسرا.

..... رأيها تنظر إلي بحنان غريب، جلست بالقرب منها منقبض القلب منخار القوى، حل صمت رهيب سمعت فيه النبض الحي خفقة خفقة.

صدر الفتى ظل يعلو ويهبط في حركة رتيبة لم يتمكن من إخفائها.في تلك اللحظة استيقظت معه السماء عجوز من وراء الستار لتحمل إليه المجهول بكلمات تتوارى في صمت مطبق تزدحم فيه العبارات الفاقدة المعنى، امتزجت الصورة بدواخله، تدخلت في أقصى أعماقه وحولت ريقه حنظلا، نظر إلى المرآة فعكست شخصا أشفق عليه.

.... شحذ الفتى إرادته، غادرته مخاوفه مرة واحدة، ضبط نفسه مدرعا في ومضة كأنه على شفة الهاوية، وتسللت طمأنينة غريبة إلى نفسه جعلت دمه يهدأ على نحو مريح وشعر بإحساس صوفي.

.... أمسكت يد أمي المحتضرة، قبلتها بحرارة ونظرت إلى وجهها بإمعان.

.....تبسمت لي بصعوبة، مشروع ابتسامة طفيفة تعرضت للإجهاض، وأمالت رأسها يمينا في حركة بطيئة، بدت رقيقة الحس مرهقة العاطفة.

ماتت في كل حواسي وأنا أراها تحاول تحريك شفتيها كأنها تود الكلام، لكن صوتها انحبس فجأة كأن يدا ثقيلة كممت فمها، خانها دفؤها، مال رأسها جانبا وتراخت يدها وصمتت كبيت مهجور.

شرد الفتى بفكرة ينظر ولا يبصر، يصغي ولا يسمع، استسلم لريح التيه، هام على وجهه في مسالك الذكريات ودروبها ثم عاد ملطخ الجبين، وقتئذ درك أن شريان الحب والمحبة قد تمزق وانفجر بركان احزن.

.... والد الفتى واقف، جدته وإخوته يبكون، المهمة تتواصل ويكبر حجمها في الأذن، تحفر الدموع مسارين على الخدود.

.... ناديتها، ثم ناديتها ولكنها لم تجب ... ردي علي يا أمي، حنونة أنت، حملتني في أحشائك غريبا في زمن الاغتراب، تعلمت من أنينك الموجع كل الحب في جوفك، في أحشائك قبل أن تقد فيفي إلى عالم اللامبالاة والعداء.

..... ناداها الفتى مرة أخرى لكن البومة أعلنت إشارة الانسلاخ.

لاهي أجابت ولا هي تحركت ، بل رقدت إلى الأبد ، وكانت النهاية.

.... لانسلخ جلدي عن جسدي وألبسني الدهر رداء لم يناسبني.

.... بكيت وتقاطرت ... كنت أتمنى أن يكون كل ما لم بي كابوسا أو مجرد حلم مزعج .... لكن بكاء جدتي وإسكاب دموعها وثيابها البيضاء علامات تأكيد الواقع وتكذيب الحلم، هكذا راح زمان المحبة وبدأ عصر الحزن والغموض.

منها لجمع أكبر قدر ممكن من بركاتهم اتقاء من غضب أحدهم عليها.

كانت دائمة الحديث عن عفريت من الجن تقول أنها تزوجته وتحكي دقائق علاقتها به وكأنها تتكلم عن بشر حبيب لا تستطيع العيش يدونه.

.... تموت زهرة ولم تجد من يغمض عينيها، لكن في اليوم التالي يأتي شاب أنيق برفقته شابة جميلة على مثن سيارة فخمة آخر تقليعة، يأخذان الجثة وكل ما بالغرفة وأنظار سكان الدرب العتيق مصوبة بحدة نحوها.

5

للمحبة دائما لحظتها

زهرة امرأة وحيدة لا يعرف عن ماضيها شيء ذو بال.

عهدي بها وحيدة دائما، في غرفتها بالدرب العتيق في المدينة المنسية، وحيدة في الأيام العادية وحيدة في الأعياد والمناسبات، وحيدة في الأفراح، وحيدة في الأتراح، وحيدة في الصيف والشتاء، وحيدة حتى في الليل.

تقطن بغرفة علوية صغيرة لا صور على حائطها ماعدا مرايا مكسرة تواجه الدولاب العتيق المتلاشي.

كل سكان الدرب العتيق ينطقون اسمها بدون كنية ولا لقب، لا أب ولا أم، لا أخ ولا أخت ولا قريب، لكن من المعروف أنها كدت واشتغلت طوال حياتها ولا شك أنها تتوفر على ثورة، هكذا يعتقد الجميع بالدرب العتيق.

زهرة كما هي لا تتغير رغم تناقض الأيام من عمرها، تلك الأيام التي يشر دمها سكان الدرب العتيق لتتحول نهارا تهم الباقية إلى سنين طوال، المنظر بات مألوفا مما يجعل المرء لا يتوقع زيادة معرفة عن أحوال زهرة، الكل عرف عنها ما يمكن أن يعرف ونال منه شعبا لا مزيد عليه بحيث أن أي ساكن من سكان الدرب العتيق كان قادرا في كل حين على استرجاع تفاصيل حياة زهرة الوحيدة، واحدة واحدة، ورصدها في فسيفساء سهلة التركيب.

قصيرة القامة، قبيحة الوجه ، لها انف كبير ، دميمة لكنها خفيفة المزاج شفتاها مطبقتان تعقبان دوما بالسخرية اللاذعة ، لسانها حاد لا على الناس فحسب بل حتى على نفسها ، وربما كانت تسلطه على نفسها أكثر من تسليطه على الغير ، عيناها غريبتان تشعان بريق حزن أزلي معلنا الحسرة على زمن الحلاوة الذي مضى صوتها مطبوع ببحة جريحة توقظ المواجع، لا يمل من ترديد

" القدر عدو مرتقب لا أمان فيه"

كانت زهرة مولعة بزيارة أضرحة الصالحين والأولياء، تخرج من ضريح لتلج آخر، تعرف كل أضرحة المدينة المنسية، زارتها قبة قبة، تزور كل الأولياء، لا تدع واحدا سعيا منها لجمع أكبر قدر ممكن من بركتهم اتقاء من غضب أحدهم عليها.

كانت دائمة الحديث عن عفريت من الجن تقول أنها تزوجته وتحكي دقائق علاقتها به وكأنها تتكلم عن بشر حبيب لا تستطيع العيش بدونه.

..... تموت زهرة ولم تجد من يغمض عينيها، لكن في اليوم التالي يأتي شاب أنيق برفقته شابة جميلة على متن سيارة فخمة آخر تقليعة وأنظار سكان الدرب العتيق مصوبة بحدة نحوها.

6

يموت لتغذية الأمل

في زمن استحواذ الترف والبذخ وطغيان المدينة العمياء، غرق الناس في المادة لإلى أدقا نهم، لا هم لهم ولا شاغل لهم إلا اللذة واتهام الشهوات والسعي وراء الشهوة إلى درجة تفوق القياس، وتفننوا في مظاهر الثروة والثراء والرفه، وبلغوا منه شأوا بعيد المدى من المعجز تصور كل حيثياته.

في هذا الزمن ينفق الواحد على نفسه وعلى لباسه وشهواته ما يكفي لإشباع قارة، سار الناس في هذا المنحى ببطء وعلى مهل لكن بعزيمة راسخة وقوة لا ينفع معها نهيا ولا تذكرة، وتصوف الناس تصوفا شهوانيا فقدوا عه الرغبة في الصلاح والخير، وفقدوا أخلاقهم، تضخمت معداتهم وتوسعت إلى درجة لم تعد تشبع ولا يكفي أي مقدار من المال للاستجابة لمطالبها وأصبحت تردد، هل من مزيد؟

في هذا الزمن استوطن الجشع وبات الإنسان لا يفكر إلا في الاهتمام، لا يهمه حلالا ولا حراما، لا مشروعا ولا محظورا شعاره عدم تضييع أية فرصة من الفرص.

في هذا الزمن أصبح المال هو الروح والحافز الأكبر، القطب لرحى الحياة، الكل يجري وراء المجلس والمطعم، مجاهد في سبيل الفم والمعدة.

في هذا العالم وجد نفسه وحيدا مطرودا ومتخلى عنه، لم يهتم في البداية بما سيفعله غدا.

في ذات اللحظة التي بدأ فيها الصباح ينشر علاماته على المدينة، كان الليل يخيم على حياته.

إنه عبد ثمل، نشوان هيمان في لحظات حريته الأولى رغم يقينه أنه سيموت جوعا.

امتلكته رغبة ملحة في التفسخ في الطبيعة واستنشاق هواء الحقول، إلا أنه لم يعد هناك بادية.

فالبادية ليست مجرد أشجار أو سهول أو جبال أو جداول، لكنها هي أولا فضاء حرية، ولم يعد الإسمنتية الرمادية، فليس هناك سوى المصانع والمعامل الكيماوية والمركبات النووية والدخان والغازات والضجيج والضوضاء والتلوث الطاهر والباطن، المرئي والمخفي.

لم يبق له إلا المكوت بغرفته وإقفال النوافذ والأبواب وإقامة المتاريس للانطواء على نفسه.

نظر في المرآة ورأى وجهه يبعث على الراحة والاطمئنان في وقت سادت فيه الوجوه الكئيبة المنكوبة، حملق في صورته المنعكسة على المرآة وتمعن فيها من كل الزوايا.

- يقول: لقد طردت من هذا العالم؟

إنها لمصيبة حلت بك ؟

- تجيبه الصورة: لا بل، إنها السعادة إنها الحرية...

أجل لقد قذفني المجتمع لإلى إسفلت طريق المدينة الرمادية لكن حررني من قيوده

- ثم يضيف: كيف ستعيش؟ وبما ستحيى؟

- الصورة: لا يدعو هذا الأمر إلى الحزن أو القلق، ولا يستدعي الحسرة.

- يقول : مادمت لست رجل مال ولا تاجر ولا مراب ، ولا مقال ولا خادم ولا لص ، ولا مرتشي ولا مختلس ولا مستغل ، ولا ملاكا عقاريا ، فكيف ستعيش في هذا العالم؟

يالك من بائس؟

- تضحك الصورة مغمغمة: لقد ذكرت كل الوظائف الممكنة والمعترف بها في هذا العالم، ونسيت واحدة، وهي الحظ.

- يقاطعها قائلا: الحظ، لقد تم إعدامه في هذا العالم، فلم يعد الحظ حظا لأنه بات مبرمجا مسبقا.

المهم، هل فكرت في طعامك؟

- الصورة: الطعام ؟ المعدة ؟ دائما نفس النغمة، نفس الإيقاع، نفس الاهتمامات البطنية.

يقول: النفر مثلنا مازال لم يتمكن من التخلص من ترديد هذه النغمة الحزينة لأنها تغزو كياننا وما زلنا نترنح تحت نيرانها، فكيف نتفرغ إلى ترديد غيرها.

- الصورة: لكن سئمت من سماعها، لو تحررت من ترديدها لحققت السعادة.

- يقول: وماهي االسعادة؟

- الصورة: هي الحياة الحرة الطليقة، هي حث امرأة بصدق، هي التخلص من الطموح الكاذب هي الابتكار الجمال.
- يقول: لكن كيف يمكن تصور الحياة الحرة الطليقة في المدينة الإسمنتية الرمادية التي تقذف كل من عداها إلى طرقاتها النتنة.
- الصورة: الأمر يسير جدا، ما عليك إلا أن تمارس قناعاتك.
- يقول: أنا شاعر، والشاعر في هذا العالم يموت جوعا.
- الصورة: إنه يموت ليغذي الأمل.
- يقول: أتريد أن تكون فنانا في عصر مات فيه الفن، أتريدني رساما في عهد انقرض فيه الرسم ولم يعد فيه وجود للفنون الصادقة، لم يعد لدينا إلا ضبا بات غامضة مستعصية الفهم، وخطوطا لا متناهية وألوانا نخرة متلاطمة فيها بينهما والكل محاط بإطارات ذهبية بديعة.
- الصورة: يمكنك أن تكون صحفيا.
- يقول: صحفي، في عصر لم يعد أحد يثق بالجرائد والأخبار.
- الصورة: انخرط إذن في حزب من الأحزاب وضحى بالغالي والنفيس لتحقيق الأهداف.
- يقول: أتريدني أن انخرط في حزب في عصر لم يعد هناك تميز بين الأحزاب اليمين يهتم بالمال والتجارة واليسار بالتصنيع والتأمينات، وفي وقت أصبحت فيه الانتخابات لا تجلب أي اهتمام لأن أبناء النواب يرثون الآباء النواب على درب ممارسة مهنة التشريع دون ضجيج تاركين الأغلبية الصامتة تلهو بالدمى رخيصة الثمن.
- الصورة: عليك إذن تجريب مهنة المحاماة.
- يقول: أأكون محاميا في عصر أستغني فيه عن المرافعة ومقارعة بالحجة لتفصيل التصالح والتراضي عملا بمقولة: صفقة خاسرة أحسن من محاكمة تتطلب إجراءات لانهاية لها.
- الصورة: لم يبق لك إلا أن تسعى إلى وظيفة.
- يقول: فأين لي بالوساطة، وحتى لو كانت لي وساطة علي انتظار الدور آت هو أم ليس آت.

- الصورة: إذن عليك بالمحبة.
- يقول متعجبا: المحبة؟
- الصورة: نعم المحبة، عليك نشرها في كل مكان لكي يعود الإنسان إلى فطرته الأولى، أن يحب غيره قبل نفسه.

يستدير تاركا امرأة خلفه وهو على يقين من أن نشر المحبة يستوجب الاستشهاد في سبيلها.

7

وراء النافذة

صفير حاد يدوي، آ ت من مقدم الممر الطويل والضيق، رنين أبواب حديدية سميكة تصطدم بالجدران، أصوات مفاتيح في حركة دائمة، دون توقف.

في فناك سجن النساء، تحت نافذة زنزانتي ن صدى أصوات ما يزال يتردد عائدا إلى نقطة الانطلاقة، يمزق ظلمة الليل المتأهبة للانسحاب تاركة مكانها لضباب شهر دجنبر الأزرق ليخيم على سجني.

اللحظة: البكور

المكان: زنزانة السجن الصغير.

المصباح المدفون في الحائط، فوق باب الزنزانة الحديدي السميك، يرسل نوره الأصفر الخافت كأنه يعلن تضامنه معي بصمت لكن باستمرار السجان يطل من خصامه الباب الفولاذي السميك معلنا باستهزاء:

- نحن ساهرون على راحتك ..... قم لأراك وذكرني برقمك.

معذرة ن كان علي أن أخبركم منذ البداية أن ضيوف السجن الصغير يتجردون من اللقب والاسم الشخصي ويتركونه صحبة الملابس المدنية والأمتعة بالمستودع ويلبسون عوضها الزى البني الخشن ويحملون رقما مكان الاسم واللقب، يراد منهم أن يتجردوا من كل ماله صلة بالطبيعة الإنسانية والمظاهر الحضارية.

..... دون أن أتحرك من مكاني أو أنبس بكلمة ارفع يدي اليسرى، بعد إخراجه من تحت الغطاء الخشن ذو اللون القاتم، لون لا يمكن تحديده ضمن قائمة الألوان المعروفة، وأضع سبابتي على الرقم المحفور على الحائط، فوق رئسي: 5119.

..... أصوات خافتة تصلني من فناء سجن النساء، غير النافذة الصغيرة.

بعد ذهاب السجان، أقوم بسرعة وأتسلق لبلوغ كوة في الحائط، ليس لها من النافذة إلا الاسم.

نفر من السجينات يكنسن الفناء، أنه يوم التنظيف العام.

يرتعش قلبي كأنه مياه بحيرة ساكنة تقشعر بملامسة الحجر سطحها قبل اختراقها دون سابق إنذار.

أعود إلى أرض الزنزانة، أغسل وجهي بسرعة محاولا إبعاد الجزع الذي بدأ يمتلكني.

تمنيت أن يعود السجان لأطلب منه المساهمة في عملية كنس الممر ذي النوافذ الكبيرة الواسعة المطلة على فناء السجن المجاور، كنت على استعداد لتحمل أي مشقة أو أي إهانة، مقابل التمكن من الإحساس بالقرب النسبي منها إبان عملية التنظيف العام التي تلغي المسافة بيننا رغم سمك الجدران وتعدد الأسلاك الشائكة واختلاف القضبان الحديدية وكثرة الأبواب بمختلف الأشكال والأحجام، التي تفصل بين السجنين.

.....لكنه أيتها السجينات، عندما تنتهين من الكنس والتنظيف، سأظل هنا أراقب من النافدة الصغيرة، الكوة ذات القضبان الحديدية السميكة سمكا لا يتناسب وصغر حجمها، آنذاك يمكن أن تلتقي نظراتنا، أن نتلامس بالبصر ونتعانق بالعيون، ويفترس الواحد الآخر بالنظر المثقل بالأسف اللامتناهي.

ستبتسمين بسمتك المعهودة، الخالصة القحة، الصادقة الملتهبة.

الابتسامة التي لا يدرك عمقها غيري، التي تمكنني من اغتراف الشجاعة اللامحدودة من نظراتك الطرية طراوة الشمس المشرقة في الغداة، كما كنت أفعل قبل اليوم، من ثلاث سنوات، عندما تقاسمنا ثقتنا بالمستقبل وأملنا الثابت وتفاؤلنا وقناعتنا بمعذبي الأرض وعزيمتنا الساخرة من كل الأخطار والمخاطر المتربصة بنا.

في هذه اللحظة بالذات، كم أنا عطشان لتشجيعاتك الصامتة الحبلى بالحياة، محتاج أنا لها أشد الحاجة، أنا الأيل للسقوط.

.....إنه مجرد حلم، رجاء ليس إلا .... السجان لم يعد.

لم يبق لي إلا النافذة الصغيرة صعدت فوق السرير الإسمنتي، نبشت الصباغة حتى أزحتها من مساحة ضئيلة من زجاجها وشرعت في إلقاء النظر بتمعن هذا وهناك بحثا عن رفيقة مسيرتي بين عرمرم من السجينات، سجينات الحق العام وبعض سجينات الرأي.

.... هاهي أخيرا، في الزاوية، المقابلة الواقعة على أبعد مسافة ممكنة.

تبدو لي كشبح قصير، نحيف رغم اللباس الأبيض الخشن، لون أبيض لا يتناسب والمحيط المظلم كأنه نغمة خاطئة ضمن سافونية متناسقة بدقة فائقة.

.... أقشعر لإحساس بلمعان مقتلتيها تحت منديلها الأحمر القاتم، من جراء وصوله عبر نسيج ضوئي منبعث من دواخلها، مخترقا المساحة الزجاجية التي فقدت صباغتها منذ قليل بفعل أضافري.

لقد انتهت وشعرت هي كذلك بنظراتي رفعت رأسها نحو النافذة الصغيرة، اتجهت فجأة نحو سجينة وخطفت منها المكنسة وبخطوات سريعة أخذت تكنس يمينا ويسارا متجهة نحو الجدار الفاصل بين السجنين، وها هي تحدق في وجهي الذي لا يظهر منه إلا اللمم كأنها تريد مكالمتي، بل كانت تكلمني فعلا لكن بصمت.

.... تتسارع دقائق قلبي....

.....اقتربي أكثر لأتمكن من رؤية وجهك.

..... لا أعرف هل هي مراقبة؟

أسمع دوي مفتاح يستقر بثقب القفل أهبط بسرعة وأقف وسط الزنزانة.

يدخل السجان، كان بوسعي أن أتحداه وأن أظل متشبثا بالنافذة موليا له ظهري، غير مبالي، مستعدا لتحمل على العواقب لكن كنت أريد الحفاظ على سري.

سري اللذيذ الذي إذا أكتشف سيتم نقلي إلى الزنزانة المقابلة وسأفقد رفيقة مسيرتي وكذلك الجزء من العالم الخارجي، عالم ما وراء الأمور العالية، هذا الجزء الذي هو عبارة عن أطراف من قمم أشجار الكالبتوس موقع وقوف الغربان، وشظايا من بنايات غير سكنية.

فضلت النزول على التو وتظاهرت بالانشغال في ترتيب الفراش محاولا إعادة شريط الأحداث ذهبيا متناسيا صراخ السجان:

- أحضر الآنية لتناول الأكل تمتلكني ضحكة فور سماع كلمة " الأكل" فما كان يسميه أكلا هو وجبة لا اسم لها ويتعذر وصفها بدقة، إنها عبارة عن سائل رمادي متسخ مزركش بقشور طماطم تطفو على السطح، مجرد النظر إليها تجعلك تضرب عن الطعام.

صوت الصفارة يدوي من جديد معلنا نهاية عملية تنظيف فناء السجن المجاور.

إن محاولتي اليوم قد مكنتني من سعادة عابرة لكني اختزنت دقائق وقائعها بذاكرتي لاسترجاعها من حين لآخر في انتظار اغتنام فرصة قادمة.

قاطني الزنازين المجاورة يقفون في الممر للذهاب إلى ساحة الفسحة، أما أنا فلم يكن مسموح لي بمغادرة الزنزانة و الحي لكي لا التقي مع الآخرين.

فالسجان كان يتكلف بإحضار وجباتي وبإخراجي للفسحة اليومية بعد إفراغ الساحة عن آخر ها.

هكذا كانت حياتي اليومية، أهم لحظاتها المراقبة من وراء النافذة مع الحرص الشديد وترقب قدوم السجان، وكانت أحسن لحظاتي عندما أتمكن من إلقاء نظري على رفيقة مسيرتي قصد التزود بالدفء واغتراب القوة والطاقة لمقاومة رتابة الأيام الطويلة المتشابهة.

8

المتجول

السوق مروع للبشر، زحمة الحيوان وأصوات الباعة والمشترين يأتي القادم يجس الضرع، يتأمل هامة البهيمة ويتم الاتفاق، يسحب الشاري ما اقتنى ويمضي.

في منتصف النهار ضجيج، زعيق، هدير، تزاحم المناكب، التقاء الساق بالساق، تراكم على الباعة، خلية نحل، يطلق المرء العنان للخطوات في المسالك الو حلة ويرمي بالتحية يمينا ويسارا.

اليوم ميعاد السوق الأسبوعي، يوم اجتماع أهل المنطقة والعابرين حيث يرى الشاب فتاة جميلة.

شابة متأججة البهاء، قلبها تفاحة والشعر شلال ينساب رخيا على ثراء الجسد، تميل إلى السمنة لحكمة ما، لكنها رغم سمنتها تتميز بالرشاقة، نحافة الخضر تتلاءم.

والسمنة النسبية، فمتى فض خضر عن الحاجة لابد وأن هناك سر في ذلك شعرها ناعم، تتسدل خصلات منه على جبينها، ابتسامتها تحت ظلالها تشي بشيء خفي، شفتاها مكتنزتان، أثر جرح

طفيف قديم ارتكز سريا وسط الشفة السفلى، أضفى عليها حالة تأهب مستمر منطبقتان تعقبان دوما بالكلام الساحر منذ الصبا والصفاء الباكر.

عيناها عيني شهر زاد بقوتهما الآسرة، تشعان بالكآبة والفرحة الوافرة، بريقهما غبطة أزلية تجعلان كل ناظر إليها عاشقا لا يستطيع عليها فراقا.

كانت تحمل سمرة الأرض ومن نظراتها تلقي أشعة دافئة مصيبة أهدافها لا محالة رغم شدة الاحتراس.

تتكر الشاب في أسمال شحاذ وتبعها عبر المدينة، شغوفا بحبها، ملسوعا ببراءتها.

مدينة غارقة في الزحمة والفناء، مدينة لم تعد من كم ودم ولكن من إسمنت ومهمشين وضائعين وجثث ،مدينة ثلجها صحيحا معافيا وتغادرها وكأنك تصارع الغيلان ، لوحات النيون ، إشارات المرور ، زحمة في كل مكان وفي كل وقت، واجهات العرض ، ملصقات الإشهار والتخدير والتأليب، بألوان وأحجام مختلفة على مدى خمسة أيام تبعها عبر الشوارع والدروب والأزقة ، خلف المباني الشاهقة القابعة على جوانب الشوارع الرئيسية ، حيث الدور المتهالكة والمتداخلة للمدينة العتيقة بجموع أحيائها وحاراتها ، عالم آخر، من نوعية أخرى ، من عصر آخر، مدينة صغيرة في حجمها ضخمة بقاطنيها مدينة عشوائية أقيمت على يسار الطريق السيار، الوحش الأزفلتي، هناك تنعدم الإنارة العمومية ووسائل الترفيه، بل أحيانا تنعدم حتى الإنسانية.

تبعها عبر المدينة متنكرا وهي بجانب أبيها محاطة بنظراته المتوعدة والمرعبة.

لقد عذبه عشقها إنه يعلم كيف يمكن من قلبه وكيف تحول حبه العازم إلى فتنة يومية ملحاحة تهتك وجه المعاني لتنهب بمكر خضرة القلب في زمان راحت فيه عادة رسم القلوب المصابة بالسهام لتخليد الذكرى.

في اليوم الخامس، بعد مرور الأيام الأربعة، أيام النوم المفتعل والرعونة المتربصة والجنون المتأهب، لم يظهر للفتاة أثر.

يتيه الشاب للبحث عنها في قاع لظى المدينة، وينتهي به الأمر إلى فقدان الوعي بحي عتيق وسط زقاق غص إلى درجة الجرض.

بعد استرجاع وعيه يجد الشاب نفسه في غرفة مغلقة بجانب غجرية ذات شعر أسود داكن منسدل تقترب منه إلى حد الإحساس بأنفاسها تلفح وجهه وهو يحدق إلى منبع نهديها الضخمين.

في خضم اليأس كرس نفسه لها، ينحدر في دروب الخلاعة ويغرق في بحر التهتك والقصف بدأ يحس بحاجة ملحة لا تقاوم للتمرغ في الوحل والحرمان.

ذات يوم يعلم أن محبوبته التحقت بالصحراء محمية بنظرات أبيها الحامية المتوعدة تخلص من عالم الخطايا للتوجه إلى أطراف الصحراء حين كانت قافلة الشابة تتوغل في الصحراء، حاول اقتفاء أثرها، حاول العثور عليها لكن دون جدوى، اختفت بلا رجعة.

.....وحيد غارق في الوحدة، لا من يمد له يد، لا ونيس ولا أنيس، يكتشف بداخله قوة لم يع وجودها من قبل: في مقدوره المشي إلى الأمام، إنه قادر على التقدم وحده دون الاصطدام بعالم لا مبال ومعاد وهو في انسجام تام مع وجدانه الذي عرته الأوجاع.

....واصل طريقته دوما إلى الأمام سعيا وراء الكمال حتى نسي الاستقرار وأصبح رحالة يخترق المساحات متوجها نحو الأفق متوغلا في الصحراء بحثا عن محبوبته بلا ملل حتى عادت حياته مسيرة دون توقف، تيه دائم، ارتباط بمكان ولا حنين لوطن بحثا عن الحب والمحبة.

.....يذهب .... يمشي .... يسرع كأنه انسحب من تيار متدفق على أرض مستوية وصوت موسيقى عميق يعلو ويعلو كلما واصل المسيرة تتجلى نقطة نور من بعيد تتحول رويدا إلى صورة أنثى، وجه يعرفه.

أمضى عمرا باحثا عن ذلك الوجه منذ تعرف على الموت والرعب في المدينة- المقبرة، جمع عزمه وصرخ بأعلى صوته، إنها المحبة التي أبحث عنها.

9

وانكسرت المرآة

حواشي زنقة النخيل بحي الواحة تمتد على طول المنتزه العمومي لتتيه في فضاء شارع الحرية مفتخرة بأشجار نخيلها المصطفة على جانبيها.

كل شوارع وأزقة المدينة خلايا نحل ماعدا طرقات ومسالك حي الواحة، حي ليس كباقي أحياء المدينة الغارقة في الزحمة والصداع، إنه حي هادئ إلى حد يتصور معه المرء عدم وجود مكان للفقر والاحتجاج.

يملأ المشهد الأمامي للمساكين المصطفة بشكل متناسق بمنظور تشكيلي مدروس والأبواب الضخمة الخشبية أو الحديدية، البنايات لا تكاد تبين وهي مختفية وراء أشجار الزيزفون التي تؤوب إليها الطيور مغروسة بدقة أدت إلى تعانق أعضائها بطريقة تحجب ما وراءها، لا يظهر منها إلا أعلاها لعلو أسوارها الحجرية المحيطة بها.

طرقات حي النخيل لا ترى فيها راجلا إلا بستاني هنا يعتني بأغراس الواجهة أو خادمة هناك تنظف أمام الباب الضخم إنها خالية حتى من السيارات الواقفة لأن المساحات المحاطة بالأسوار تكفي لكل شيء وتضمن لكل كائن بشرا كان أو حيوانا أو نباتا، ولكل جماد، فلا داعي للاغتراب خارج الأبواب الضخمة.

في الجانب الأيمن لزنقة النخيل يمتد الحاجز الحديدي المتآكل للمنتزه العمومي الكئيب الموروث من حقبة مضت كان فيها زمام الأمور في يد أناس غير الأهالي، صفوف متناسقة من أشجار الصفصاف والتنوب تكاد تخفي فوارة شجر الزيزفون، في ظل الأغصان المكسورة بالوريقات اللامعة يبدو المسلك الرملي المنعرج على يمين الخشبي المتلاشي، هنا يخيم الهدوء والسلم لأن سكان حي الواحة مستغنيين عن المنتزه فلكل مسكن حديقته الخاصة، إنهم في عنى عنه متخمين بالثراء، غارقين في رفاهة من العيش ورغد وسعة وخصب.

في هذا الحي هناك فيلا من طابقين أبوابها ونوافذها من الخشب الرفيع وأراضيها من الرخام النفيس، أثاثها جادت به قريحة صناع مهرة من الأهالي والجانب، جدرانها مكسرة بالورق المصبوغ وضعت فوقه لوحات لمشاهير الفنانين خصوصا الأجانب منهم، في كل زاوية وفي كل ركن، في كل غرفة وحجرة أرائك من الجلد الخالص.

من نافذة إحدى الحجرات تظل السيدة " محا " من حين لآخر، وترمي ببصرها نحو أبعد ما يمكن أن تصل إليه العين، تسمح المكان بمقلتيها فيرتد بصرها سوت نظارتها ذات الإطار الذهبي على أنفها وبدت غير مبالية ملقية من جديد نظرها على الخضرة المحيطة بالفيلا من كل جانب مستمتعة بدفء زوال يوم من أيام يونيو تراقب طفلين، ذكر وأنثى يلعبان وسط الحديقة، من حين لآخر تنادي باسم: هجر، يحيى .... لتذكيرها بوجودها وتعطيل تأججهما والحد من حميتهما حالما تلاحظ أن أحدتهما تباعد ونبا، إلا أن الصغيرين لا يعيرانها أي اهتمام ولا يباليان بها ويواصلان ضحكاتهما دون أدنى اكتراي لأمرها، معلنان تحديهما لجو البث والشجو الذي داهم العائلة وغشيها منذ زاره الردى مؤكدين أن الحياة مستمرة.

فقدت السيدة " محا" أختها " أية" إثر حادثة سير مرعبة ونجت هي، لازالت تتذكر الفاجعة لحظة لحظة.

..... تغطية " أبة" على دواسة البنزين بعصبية، نبالغ في السرعة رغم تحذيرات " محا" المتكررة على اليمين أشجار تمر كمقاصل وعلى اليسار فراغ لا متناهي وهما في قلب السيارة معا، تزود المحرك بمزيد من البنزين، تزداد السرعة و كأنها تتعجل لحظة الاصطدام، وكانت الفاجعة.

لم يحترم المنون حسن " أبة " ولم يراع جمالها ونضرتها، وابتسامتها الدائمة التي كانت تحملها كما يحمل الجل الورود.

علاقة وطيدة كانت تربط الأختين يتيمتي الأم، لقد تعهدتا على عدم الافتراق، حب الطبيعة والريف جمعهما، وعشق الأفق وحدهما، إلا أن الدهر فرض عليهما التخلي عن وعدهما بعد زواجهما.

"محا" تزوجت بمهندس مدير عام لأكثر من شركة أما " أبة" فارتبطت بمحترف سياسة محنك عرف كيف يستغل الظروف ويتحين الفرص حتى استغنى عن العمل وتفرغ للتمتع بصرف الثروة والاستمتاع بملذات الحياة.

تأثر البعلان بعلاقة الأختين الحميمة فتصاحبا وتوادا وسكنت العائلتان بنفس الحي والزنقة.

قبل رحيل "أبة" قرر زوجها الاستتقرار بحي الواحة افترقت الأختان الخليلتان وأحست "محا " بكآبة وغشيها الغم والكرب لم تقوى على بعد " أبة" عنها لأنها كانت تستمتع برعايتها وتزويدها بالحنان الأمومي والعشق القدسي. كم حملتها وهما صغيرتان بين أد رعيها الضعيفين وهما تلعبان لعبة الأم الرضيع ومنذ ئد لن تتخلى عن السهر عليها ولو كان ذالك يؤدي لتحملها ما لا طاقة لها به. كانت تتحملها إلى حد الاستهواء وتتحمل إغواءها بجمالها فبمجرد ظهور " أبة" كان يحجب وجود " محا" التي لم يكن جمالها ينافس نظرة " أبة" كانت رشيقة الحركة خفيفة المزاج يدفعها كبرياؤها إلى حد ارتكاب السيئات.

كانتا سعيدتين الواحدة بالأخرى الواحدة مرآة الأخرى " محا" ترى نفسها في " أبة" و " أبة تعوض نفسها في " محا"، كانتا اثنتين في واحدة " محا، أبة " إلى أن الموت " أبة" وفقدت المحبة نصفها وانكسرت المرآة التي كانت ترى فيها " محا" نفسها وتتوحد عبرها بنصفها الآخر لصهر المحبة.

10

حفاظا على سمعة المرحومة

كان يحب زوجته إلى درجة الجنون ويثق فيها إلى حد اعتبارها ملاكا ومثالا للوفاء والإخلاص.

كانت جميلة، قامتها سامقة، قوام مثال في الرشاقة، شعر أشقر يتلألأ تحت أشعة الشمس أو نور الأضواء، عينان واسعتان، لونهما أزرق صافي تنمان على نظرة ماكرة كانت معجبة بنفسها إلى حد النرجسية، حتى في لحظة احتضارها.

فقدت حياتها على إثر حادثة سير شنيعة بعد موتها غرق الزوج في الحزن محاولا انتزاع من ظلمات الماضي بعض ذكرياته بجانب الفقيدة.

هل كانت سعيدة معه؟ لاشك في ذلك، كل تصرفاتها كانت تعبر بجلاء عن إحساس بسعادة خاصة، كانت دائمة الابتسامة رغم شعور الزوج من حين إلى آخر بنغمة دخيلة غريبة في ضحكتها خصوصا في أيامها الأخيرة، لقد أبحت ضحكتها ممتدة ومتصدعة، لم يعر أي اهتمام لهذا التغيير رغم وضوح الفرق بين ضحكاتها السابقة وضحكاتها الأخيرة.

كان مشغولا بعمله ونجاحه ولم يهتم بالاستماع بالنظر إلى زوجته وهي تحيى أمامه وبجانبه كان يظن أن مازال لديه الوقت الكافي لمنح مزيد من السعادة لزوجته لكن الموت باغته.

بعد الجنازة يتقدم شاب للسؤال عن زوج أخت المرحومة، إنه شاب من هؤلاء الشباب الذين يؤكدون حضورهم في أي مجمع ويثيرون الانتباه إليهم بأي ثمن، مهتم بهندامه أكثر من اللازم.

- لماذا ظهر هذا الوقح؟ لقد ظننت أن المرحومة تخلصت منه منذ زفافها.
- إنه يلح على مقابلة زوجي، ماذا يا ترى يريد منه؟

بدأ القلق يتسرب إليها، تفكر في أختها الفقيدة كأن القبر لم يعد كافيا لحمايتها من أية شائبة.

- عفوا يا سيدتي عن هذا الإزعاج، لكن....متلعثما باحثا عن الكلمات.

تقاطعه بعنف، رغبة منها في الاحتماء وراء زوجها.

- إن زوجي سافر رفقة زوج المرحومة، ولن يعود إلا بعد غد، هل لديك ما أبلغه إليه؟
- يرد عليها بصوت مشحون بالتوتر.
- أريد أن أكلمه في غرض شخصي جدا.
- إذن عليك انتظار عودته.
- سيفوت الأوان يا سيدتي.
- فما عليك إذن إلا أن تكلمني في الأمر.
- مستحيل يا سيدتي .... إن الأمر يتعلق بالمرحومة.
- إذا كان كذلك فأنا أختها وأولى من زوجي لمعرفة الأمر.
- لا....لا....لا أستطيع.
- أريد أن أعرف ، لابد أن أعرف وبعد صمت ، يقول الشاب بحرص شديد.
- يجب أن نجنبها فضيحة.

تنظر إليه يخفظ بصره وبصوت خافت يقول:

- في درج المكتب، مكتبها، حزمة رسائل لابد من إتلافها قبل رجوع زوجها.
- لم تقو الأخت على التحرك من مكانها، تحجرت ملامحها، كان الشاب ينتظر وابلا من الشتائم وعاصفة من الغضب والحقد، يرتعد أمام الصنم الماثل أمامه.

فجأة تنهض الأخت صارخة:

- أخرج من هنا يا وغد.....

كانت وجها لوجه أمام عشيق أختها. لم يستوعب، هم بالوقوف وهو يفكر في المرحومة، إلتفعت كلمات إلى فمه، تحركت شفتاه المطبقتان بصعوبة.

- ألم تفكري في المرحومة ؟

آنذاك كانت بالفعل تفكر فيها.

- مهلا، انتظر؟

تخترقها فكرة، تصورت سمعة أختها ملطخة، مصيبة أعظم من الموت، أليس من واجبها حمايتها والتستر عليها؟

تغطي وجهها براحتيها وتبكي، لقد استطاع الشاب إصابة عمق بؤسها البشري.

- أعرف أنني قلبت المراجع، أطمع في مغفرتك، عليك أن ترحميني، لقد قاسيت قبل أن أقرر الإقدام على ما أقوم به الآن، كان في وسعي أن أصمت، كنت أظن أنني سأجد زوجك وأكلمه في الأمر، أعرف أنه شرف.
- لقد كانت طفلة، أنت الجاني ليس هي ....
- كنت أحبها..
- لقد كانت سعيدة قبل التعرف عليك
- عندما نحب لا نفكر إلا في الحب
- ياله من تفكير يشوه المحبة؟
- إنه الحب....
- لا، لا ، المحبة هي توفير السلم والطمأنينة أما أنت فقد وفرت لها العكس تماما ، إنك تقلقها حتى بعدما استقرت بقبرها.

صمتت طويلا ثم قالت، ماذا علينا أن نفعل الآن ؟

- علينا إتلاف الرسائل حالا.
- أين توجد هذه الرسائل المشؤومة؟
- في درج مكتبها
- هل هي كثيرة؟
- نعم، حزمة....
- هل مضامينها مشينة ؟

يحرك رأسه بصمت؟

11

البتول والبحيرة

كعادتها تتجه البتول نحو البحيرة لتتأمل صورتها المنعكسة على سطح المياه الفضية الراكدة، إنها مغرمة بصورتها إلى حد النرجسية، تطل الساعات الطوال تحملق في طيف صورتها، تتمعن في الوجه واستدارته وإنسياب منحنى الخدين الورديتين المتناسقتين والبشرة الصافية صفاء النور الصيفي، وتدقق النظر في العينين الكحليتين تشعان بالفرحة الوافرة ببريقهما الأزلي المغيظ، وتمحص الشفتين الرقيقتين المبتلتين على الدوام المستقرتين أسفل أنف دقيق الحجم والشكل، وتنهي جولته

ا بالنظر إلى الشعر الشلال وهو ينساب رخيا على ثراء الجسد، شعر ناعم تنسدل خصلات منه على جبينها الوضاء.

هكذا كانت البتول تقضي أيامها.

ذات يوم وهي جالسة في مكانها المعتاد رفيقة طيفها المنعكس على صفحة المياه الفضية الراكدة، سقط حجر فأخذت تموجات شوهت بقسوة ملعونة طيف الصورة، ومنذئذ لم تعد البتول تأتي إلى البحيرة حيث اعتكفت بغرفتها تبكي وتذرف الدموع.

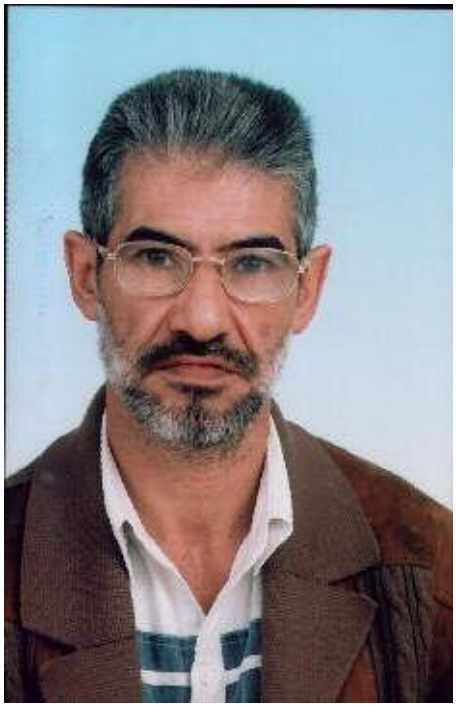
انتظرت البحيرة قدوم البتول، وطال انتظارها وبدأت مياهها تجف رويدا رويدا كأنها تزود عيني البتول بالدموع المترقرقة.

لم تعد البحيرة تطيق الحياة بعد غياب البتول عنها لأنها حرمتها من رؤية صورتها في أعماق عينيها الكحيلتين.

فقد كانت البتول تتأمل صورتها على البحيرة التي كانت بدورها تستمتع برؤية نفسها في أعماق عيني البتول، لأنها كانت كذلك مفتونة بجمالها.

استمرت البتول في البكاء، فاضت دموعها وترقرقت وتماطرت وظلت البحيرة تزودها بالدمعة تلو الدمعة إلى أن جفت مياهها.

السيرة الذاتية للكاتب إدريس ولد القابلة



- كاتب و صحفي مغربي
- خريج المدرسة الوطنية للإدارة العمومية بالرباط (شعبة الاقتصاد و المالية)
- مجاز في الاقتصاد
- دبلوم الدراسات الجامعية العامة في الفلسفة و علم الاجتماع و علم النفس
- مكلف بمهمة بمركز حقوق الناس
- مدافع حقوقي نشط
- باحث في مجال السياسة و التنمية المحلية و البيئة و حقوق الإنسان

البريد الإلكتروني:
okdriss2000@yahoo.fr